خرائط الانتشار

ساح داعش في الأرض، رغم أن وجوده الأساسي في أرض عربية أسيوية، هي العراق وسوريا، ومنهما يوجد متعاطفون معه في بقية البلدان العربية والإسلامية في قارة آسيا. سواء كانوا جددا نجح التنظيم بدعايته في إقناعهم بالإنضمام إليه، فشد بعضهم الرحال إلى ما يسميه داعش «أرض الخلافة»، وبقي بعضهم في مكانه متعاطفا من التنظيم سواء جاهر بهذا أو تصرف كخلايا نائمة، أو كانوا تابعين لتنظيمات جهادية سابقة، تتفاعل وتتشاكل مع داعش في التفكير والتدبير.

لكنني في هذا المقام سأركز على وجود داعش خارج أرضه، خصوصا في القارتين العجوزين، أفريقيا وأوروبا، لنعرف كيف تمكن من أن يصل، فكرا أو تنظيما أو تأثيرا إلى أماكن خارج دائرة نفوذه أو موطن حكمه.

ابتداء فإن تنظيم «داعش» لم ينبت في التربة الأفريقية لكن ما بها من تشققات وانهيارات وأشباه ونظائر لهذا التنظيم فتح الباب أمام تواجده ونموه وتمدده بشكل لافت، وفي زمن قصير، فساح في خريطة تضم دول الشمال

obeikan.com

الأفريقي العربية مثل ليبيا وتونس والجزائر، ويلاقى هوى لدى مصريين ومغاربة، بعضهم سافر بالفعل إلى سوريا، ثم يهبط جنوبا إلى السودان، وأفريقيا الوسطى، وغربا إلى تشاد والنيجر ومالي، ثم ينحرف نحو نيجيريا، حيث تنظيم «بوكو حرام» الذي أعلن زعيمه أبو بكر شيكاو بيعته لداعش في تسجيل صوتي، لاقى ردود أفعال في شتى أنحاء العالم.

يعتمد داعش في تمدده بين ربوع القارة السمراء على ثلاثة عناصر أساسية، يمكن ذكرها على النحو التالي:

١. وراثة القاعدة: فعقب حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تمكن تنظيم القاعدة من بناء شبكة تابعة له منتشرة في أكثر من بلد أفريقي، لاسيما البلدان التي يشكل المسلمون أغلب أو نسبة معتبرة من سكانها، لكن القاعدة فقد القدرة تدريجيا على التحكم في أطرافه، وتحول من تنظيم يعرف تسلسل الأمور التي تحركه صعودا وهبوطا، إلى مجرد فكرة مبثوثة في العالم الافتراضي، وضاع بريقه في عيون المتطرفين حين تراجعت إمكانيته على تنفيذ أعمال إرهابية. فلما ظهر داعش وقدم، لأول مرة في التاريخ الحديث والمعاصر، نموذج لتنظيم ديني مسلح بوسعه أن يقيم دولة على مساحة جغرافية واسعة، بات هو صاحب البريق، الذي خطف أبصار جماعات وتنظيمات متطرفة، فنقلت بيعتها من القاعدة إلى داعش.

٢. إشاعة الفكرة: وفكرة داعش التي تبدو ملهمة لتنظيمات دينية متطرفة عدة في أفريقيا ليست بالطبع نظرية عميقة ولا أيديولوجية محددة الملامح والقوام إنما هي «فكرة عملية» أو رؤية من الممكن تحويلها إلى إجراءات في الواقع. فداعش استعارت بعض الأفكار التاريخية حول «جهاد الطلب» و«الخلافة» و«الولاء والبراء» و«تطبيق الشرع» وتقسيم العالم إلى «دار إسلام ودار حرب» لتستعملها ابتداء في إطلاق مشروعها الذاهب إلى بناء دولة على أنقاض وأشلاء، ثم تتخفف منها، وتدوس عليها بالأحذية الغليظة لحاملي البنادق والقنابل.

ومثل هذه الفكرة يمكن لداعش أن يسوقها بسهولة للجماعات والتنظيمات المتواجدة بالفعل في بعض البلدان الأفريقية، وكذلك للأفراد غير المنتظمين الذي يتبنون الرؤية «السلفية الجهادية» بوجه عام، ويتواصلون مع تصورات داعش وتصرفاته عبر شبكة الإنترنت.

٣. استغلال الفشل: فالتنظيمات المتطرفة والإرهابية النازعة إلى تحصيل السلطة السياسية تجد دوما في الدول الفاشلة والرخوة والمتعثرة والتي يعاني فيها الحكم من أزمة شرعية أرضا مناسبة كي تدفع مسارها قدما، وتجند أنصارها. وداعش ليس استثناء من هذه الحالة، فهو تنظيم يبدأ نشاطه في مناطق تتراخى فيها قبضة الدولة المركزية، أو توجد مشكلات بين سكانها وبين السلطة

الحاكمة لأسباب عرقية أو جهوية أو مذهبية أو سياسية أو طبقية. ونظرا لأن عدة دول أفريقية تعاني من هذه النقائص، وتواجه أزمات حادة لا تلوح في الأفق أي بوادر حقيقية لحلها، فتنفجر بالفوضى والاضطراب، ويجد داعش في هذا المناخ فرصة سانحة كي يحمل السلاح ويجمع حوله الغاضبين والحانقين والرافضين والراغبين في إسقاط السلطة أو حتى إسقاط الدولة نفسها.

وهناك من ينظر إلى داعش، كما كان ينظر إلى القاعدة، بالعين ذاتها التي ترى «شركات متعددة الجنسيات» تتناثر حول مقرها الرئيسي فروع في دول عدة. فداعش إن كان مركزه العراق، لأنه الطور الرابع من جماعة «التوحيد والجهاد» التي أنشأها أبو مصعب الزرقاوي هناك، ثم صار «تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين» وتحور بعدها إلى «إمارة العراق الإسلامية» وبعدها اشتد ساعده وقويت شوكته ليصير «الدولة الإسلامية في العراق والشام». ومن هذا المركز بدأ التنظيم يجذب إليه جماعات في قارات عدة ومنها أفريقيا.

وفي القارة السمراء يضم «داعش» تنظيمات صغيرة أعلنت ولاءها له وانحدرت تحته راضية، مثل تنظيم «أنصار بيت المقدس» في شبه جزيرة سيناء المصرية والتي جاء جزء منها من قطاع غزة واندمج مع جماعة «التوحيد والجهاد» المحلية.

وتوجد «جند الخليفة» في الجزائر، وهي كانت جماعة تابعة للقاعدة ضمن فرعه الذي يسمى: «تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي»، لكنها لم تلبث أن انشقت عن القاعدة وأعلنت على لسان أمير منطقة الوسط خالد أبوسليمان مبايعة داعش، لتدخل بعدها في صراع ضد الدولة لا يزال مستمرا رغم فقدانها بعض مقاتليها على رأسهم قائدها قوري عبد المالك، الذي قتله الجيش الجزائرى في مواجهات دامية بين الطرفين، وهذه الجماعة مسئولة عن قتل أحد الرهائن الفرنسيين في سبتمبر من العام الماضي.

وهناك تنظيم «أنصار الشريعة» في تونس الذي نفذ عمليات إرهابية ضد الجيش في جبل الشعانبي، وكان وراء الهجوم على متحف باردو في ١٨ مارس من العام الجاري، والذي قتل فيه ثلاثة وعشرون شخصا وأصيبت خمسون آخرون. ويوجد بتونس أيضا تنظيم «كتيبة عقبة بن نافع» الذي انشق عن تنظيم القاعدة وبايع داعش، ويتبني أفكارا «سلفية جهادية».

أما تنظيم داعش في ليبيا فيضم بين صفوفه آلاف المقاتلين من بلدان شمال أفريقيا وغيرها، ويحاول أن يتمدد إلى مصر شرقا، وتونس والجزائر غربا، وهو المسئول عن ذبح مصريين وأثيوبيين والدخول في معارك طاحنة ضد الجيش وجماعات أخرى ثورية ودينية. لكن تبقى الحالة المصرية صارخة مقارنة بدول عربية وأفريقية أخرى خارج العراق وسوريا.

ويخطف «داعش» أنظار العالم بممارساته ورهاناته ومعاركه في معقله الرئيسي بأرض العراق وسوريا، وكذلك حين يقدم على أي عملية إرهابية في أوروبا، لكن ما يفعله في مصر لا يلقى الاهتمام الكافي من وسائل الإعلام، مع أن الجيش المصري يخوض حربا مستمرة ضده في شمال سيناء، وهي حرب فعلية قياسا إلى عدة عوامل، يمكن ذكرها على النحو التالي:

١. يضع فرع داعش في مصر الذي كان يسمي نفسه «انصار بيت المقدس» لنفسه هدفا خطيرا يتمثل في محاولة اقتطاع جزء من سيناء يمتد من العريش في الجنوب الغربي إلى رفح في الشمال الشرقي، وبامتداد يصل إلى نحو أربعين كيلو مترا في العمق، لإقامة إمارة داعشية عليه.

٢. يقدم الجيش المصري ومعه قوات الشرطة، تضحيات مستمرة من الشهداء والمصابين، إذ لا يمر أسبوع إلا وتأتي أنباء عن قتلى وجرحى بفعل قاذفات هاون تقصف من بعيد الأهداف الثابتة، وهجمات بالأسلحة الخفيفة من قبل مجموعات إرهابية، وأخرى بعربات مفخخة، أو تلغيم طرق أمام ناقلات الجند والدبابات، في المقابل تفيد بيانات الجيش باستمرار بمقتل إرهابيين وإصابتهم، واقتحام معاقلهم في الصحراء وفي المساكن بمدن العريش ورفح الشيخ زويد، وتدمير عربات دفع رباعي، ومخازن سلاح ومؤن، علاوة على جمع المعلومات عن متعاونين مع الإرهابيين، والقبض عليهم.

٣. تقوم مجموعات تكفيرية و»ذئاب منفردة» لداعش بعمليات في المدن المصرية، بزرع قنابل أو قتل ضباط من الجيش والشرطة ورجال قضاء، وكثير من هذه العمليات أعلن فرع داعش في مصر عن تبنيه لها.

٤. يتحدث مسئولون سياسيون وفي المؤسسة العسكرية المصرية دوما عن حالة الحرب التي تعيشها البلاد، وهو ما يلقى صدى واسعا لدى وسائل الإعلام. وهناك قطاع عريض من المصريين يؤمن بهذا الاتجاه، ويرى أن داعش تنخرط في المؤامرة الكبرى على مصر، والتي تعزى في أصلها إلى جماعة الإخوان، وبعض القوى الإقليمية والدولية التي تستهدف مصر عقب إطاحة حكم الإخوان في الثالث من يوليو ٢٠١٣.

٥. هناك خليط من حديث رسمي وتناول إعلامي وتحليلات سياسية وعسكرية تتناول تربص تنظيم داعش في ليبيا بمصر، وتزداد نبرة هذا الحديث كلما وردت أنباء عن توجه دواعش ليبيا شرقا. ولا تقف مصر مكتوفة الأيدي حيال هذا، فهي تدافع عن أمنها من داخل الأراضي الليبية، عبر مساعدتها لقوات الجيش الليبي، التي تطالب القاهرة العالم بالموافقة على تسليحه، حتى يكون بمقدرته التصدي لداعش وغيره من التنظيمات الإرهابية التكفيرية التي تنتشر على الساحة الليبية من أقصاها إلى أدناها. في الاتجاه الآخر هناك اتهامات

obeikan.com

لحركة حماس بأنها تغذي الجماعات التكفيرية في سيناء عبر الأنفاق، أو أن أجهزة مخابرات إقليمية تستهدف مصر، تتخذ من عزة مكانا للقيام بهذه المهمة.

ويبدو أن هذه الاتهامات تتأسس بدرجة رئيسية على نقطة البداية، حين تخلصت حكومة حماس من بعض العناصر «الجهادية» من «انصار بيت المقدس» وغيرها، والتي كانت تحرجها، المرة تلو الأخرى مع إسرائيل، باختراق الهدنة، فتخلصت منها حماس بطردها إلى سيناء، لتلتحم بجماعة «التوحيد والجهاد» هناك، وتؤسس فرع داعش في سيناء.

٦. يبدو «داعش» في بعض تصرفاته على الساحة المصرية معطوفا، في إدراك السلطة المصرية على تاريخ من العنف الدموي الذي شهدته مصر عبر أربع موجهات إرهابية سابقة، آخرها تلك التي وقعت في تسعينيات القرن العشرين، حين حمل تنظيما «الجماعة الإسلامية» و«الجهاد» السلاح ضد السلطة، وانزلق العنف، بجوانبه المادية والمعنوية واللفظية والرمزية، إلى المجتمع. وهذا يجعل كثير من المصريين، في السلطة وخارجها، يدركون أن «داعش» لم تنبت في الساحة المصرية من فراغ، إنما تستفيد من الرصيد الاجتماعي والتنظيمي والفكري، للحركات الإرهابية والمتطرفة التي ماجت بها الساحة المصرية، والذي خلق مخزنا بشريا يغرف منه داعش، ويعول عليه، سواء بانضمام خلايا تكفيرية صغيرة إليه،

obeikan.com

أو بإنتاج ما يسمى «الذئاب المنفردة».

هذه العوامل الستة تتفاعل مع بعضها البعض، لتجعل من مصر مستهدفة من الإرهابيين أو في مرمى نيران داعش، وبما يؤكد، بكل وضوح، أن البلاد تمر بالموجة الخامسة من الإرهاب، وهي جد مختلفة عن سابقاتها، مع استشراء الاتجاه التكفيري وتعمقه، وعولمة الإرهاب، ووجود أحزمة جغرافية تنطوي على بيئات خاضنة ومنتجة وموظفة للإرهاب، ما يعني أن هذه الموجة قد تطول نسبيا، الأمر الذي يعطي مسوغا قويا للسلطات المصرية قد تتحدث بملء فيها عن خوض الدولة لحرب حقيقية ضد الإرهاب.

وبينما يغازل «داعش» تنظيم «حركة الشباب» في الصومال كي ينضم إليه فإنه تمكن من الحصول على بيعة من «بوكو حرام» في نيجيريا، وهي إن كانت لا تعني انضواء هذا التنظيم الذي ارتكب جرائم بشعة ضد نيجيريين من المسلمين والمسيحيين وكذلك أجانب، فإنها ستوفر لداعش مكانا آمنا للتدريب، وتخزين السلاح، وتجنيد المرتزقة، وجذب السلفيين الجهاديين، وتيسير التحرك شرقا نحو السودان، حيث صدر تقرير للجنة تابعة للأمم المتحدة تحذر من تحول إقليم دارفور إلى ملاذ آمن للإرهابيين، وشمالا نحو غانا والسنغال وصولا إلى موريتانيا والمغرب. وقد سبق لداعش أن أعلن السودان ودول شمال أفريقيا ولايات تابعة له، من الناحية النظرية على الأقل.

وفي مالـي تمكنـت جماعـة متطرفـة، تحمـل الأفـكار ذاتهـا الـتي يعتقـد فيهـا تنظيـم «داعـش» وتسـلك طريقـه الدمـوي والتخريـبي، مـن اقتطـاع جـزء مـن أرض البـلاد في مطلـع عـام ٢٠١٣ وأعلنـت عليهـا إمـارة إسـلامية، ثـم بـدأت تزحـف نحـو العاصمـة مدمـرة في طريقهـا الآثـار الإسـلامية ومسـتولية علـى أماكـن تمركـز الجيـش ومؤسسـات الدولـة، لكـن الغـرب تدخـل سـريعا، خاصـة فرنسـا، الـتي حصلـت علـى شـبه تفويـض دولـي بالتصـدي لهـذه الجماعـة، وتمكنـت مـن هزيمتهـا، وأبقـت علـى نحـو ثلاثـة آلاف جنـدي فرنسـي هنـاك، فيمـا تنسـق أمنيـا مـع النيجـر وبوركينـا فاسـو والجزائـر، للحيلولـة دون أن تجـد هـذه الجماعـة مـلاذا آمنـا علـى أرض مالـي.

يـترك تمـدد «داعـش» في أفريقيـا آثـارا شـديدة السـلبية علـى الأوضـاع السياسـية والأمنيـة والاقتصاديـة في القـارة السـمراء، إذ يُعـرِّض بعـض الـدول الهشـة للانهيـار، ويزيـد مـن متاعـب الجيـوش وقـوات الأمـن في أخـرى، ويسـبب إزعاجـا شـديدا للسـلطات والمجتمعـات في ثالثـة.

فدولـة مثـل ليبيـا قـد لا يلتئـم شملهـا مـرة أخـرى، فتسـتعيد تماسـكها وتوحدهـا، إن بقـي لداعـش وجـود قـوي علـى أرضهـا. وتونـس تخشـى عمليـات إرهابيـة أخـرى، سـواء ضـد الجيـش أو بعـض مؤسسـات الدولـة، خاصـة أن جماعـات تابعـة لداعـش هنـاك تسـعى جاهـدة لنقـل الصـراع إلى شـوارع العاصمـة.

والجزائر، التي عاشت عشرية دموية سقط فيها ما يربو على مائة ألف قتيل، تبدو غاية في الحذر حيال أي نفخ في أوصال الجماعات التي لم تضع السلاح وتنضوي ضمن «الوئام الوطني»، وبايعت داعش. ومصر تدفع كل أسبوع تقريبا شهداء في مواجهة الجيش مع «تنظيم بيت المقدس» سواء داخل سيناء أو خارجها، علاوة على عمليات إرهابية متفرقة في شتى أنحاء البلاد، تنفذها جماعات إما تابعة لداعش أو معجبة بتجربته، ضد رجال الشرطة والقضاة والمنشآت الحكومية والمؤسسات الاقتصادية والخدمية والسياحية. والمملكة المغربية تتخذ كل إجراءات ممكنة للحيطة والحذر بعد أن انضم بعض شبابها إلى داعش في سوريا.

وإذا كان أيمن الظواهري قد نصح «حركة الشباب» في السودان ألا تترك «القاعدة» وتنضم إلى داعش، فالباب مفتوح أمامها في أي وقت لإهمال هذه النصيحة، وفي كل الأحوال فإن تلك الحركة تساهم في استمرار الصومال دولة فاشلة، حين تعيث في أرضه فسادا وترتكب العنف ضد أهله ومؤسساته، ويمتد آذاها إلى دول أخرى مجاورة مثل كينيا، التي تعرضت لثلاث هجمات دامية في السنوات الثلاث الأخيرة على يد الحركة، أولها في سبتمبر من عام ٢٠١٣ واستهدف مركزا للتسوق في العاصمة نيروبي وقتل فيه ٦٧ شخصا، وثانيها في نوفمبر ٢٠١٤ حيث أعدمت الحركة ٢٨ راكبا في حافلة شمال شرق كينيا، ردا على العمليات التى تنفذها الشرطة الكينية

ضد مساجد مومباسا على الساحل، والثالثة كان في شهر إبريل من العام الحالي ضد طلاب جامعة «جارسيا» وأسفرت عن مقتل ١٥ طالبا وإصابة ثلاثين آخرين بجراح متفاوتة.

ويشكل انتشار «داعش» في غرب أفريقيا خطرا داهما على تأمين تدفق النفط الذي ظهر بقوة في السنوات الأخيرة، إلى الأسواق الأوروبية والأمريكية، وبالتالي سيفتح بابا جديدا لتدخل دولي هناك إن تنامى نفوذ هذا التنظيم الإرهابي. فالولايات المتحدة أبدت اهتماما شديدا بأفريقيا بعد طول إهمال، لاسيما دول غرب القارة، بعد أن بينت المسوح الجيولوجية أن هذه الدول تمتلك احتياطات وفيرة من النفط الخام.

وكانت واشنطن تتصور أن النفط الأفريقي يتمتع بأمان نسبي، وهي مسألة تبدو من قبيل التفاؤل المفرط وليست حقيقة واقعية بأي حال من الأحوال. فدول غرب أفريقيا تعاني من انقسامات عرقية وقبلية وخلافات دينية ومشاكل حدودية وصراعات داخلية مع الأنظمة الحاكمة، تجعل من الصعب عليها أن تتمتع بهذا الأمان المفترض. وإذا كانت وسائط نقل النفط من هذه المنطقة تستمد أمانها من كونها تنطلق في البحار المفتوحة ولا تمر عبر مضايق، فإن المنشآت النفطية ذاتها عرضة لهجمات خلال أي اضطرابات تشهدها دول غرب القارة، كما أن الإمدادات النفطية ذاتها من الممكن أن تتوقف أثناء وقوع هذه الاضطرابات. علاوة على إمكانية تعرض الأنابيب النفطية المنتشرة في بعض دول القارة

لهجمات، مثل ما يحدث في نيجيريا، أو بالنسبة للأنبوب الجاري إنشاؤه لنقل النفط من جنوب تشاد إلى ميناء دوالا الكاميروني الواقع على خليج غينيا، المتصل بالمحيط الأطلسي، والذي يبلغ طوله ١٠٧٠ كيلومترا، وتصل تكلفته إلى ٤ مليارات دولار، أو الأنابيب التي تنقل النفط الأنجولي إلى موانئ التصدير على المحيط الأطلسي.

ويمكن لتنظيمات متطرفة تابعة لداعش أن تندمج في عملية استهداف وسائط نقل الطاقة في أفريقيا، سواء النقط أو الغاز، فتفجرها إن لم تتمكن من الإستيلاء عليها، وتستغلها إن تمكنت، على غرار ما جرى في العراق وسوريا، حيث حولت آبار ومصافي نفط في البلدين إلى مصدر رئيسي لدخلها، من خلال بيعه في السوق السوداء.

من هنا فإن تواجد داعش أو تنامي نفوذها يسبب أخطارا شديدة على الأمن الأفريقي، وعلى الأوضاع السياسية لكثير من دوله، ويؤثر سلبا على إمكاناتها الاقتصادية، فالاستثمارات تهرب من أي مكان يعاني من الاضطراب، والسياح لا يذهبون إلى مناطق تعج بالفوضى، وأهل أي بلد لا يلتفتون إلى العمل والموت والتشرد يقف لهم على كل الأبواب.

أما في أوروبا فإن كثيرا من الأعمال الإرهابية التي وقعت، خصوصا في عام ٢٠١٦، في بعض دول القارة نسبت إلى داعش، تصريحا أو تلميحا. وهناك أوروبيون هاجروا

إلى العـراق والشـام وانضمـوا إلى مقاتلـي التنظيـم، منهـم عـرب ومسـلمون يعيشـون في أوروبـا منـذ سـنوات، ومنهـم أوروبيـون أقحـاح، وهـي مسـألة تثـير التسـاؤل والعجـب في آن.

وقـد دار نقـاش عميـق خـلال المنتـدى السـنوي التاسـع لصحيفـة «الاتحـاد» الإماراتيـة عـام ٢٠١٤ ، الـذي أشـارك فيـه بوصفـي مـن كتابهـا، حـول الأسـباب الـتي دفعـت أوروبيـين أقحـاح إلـي أن ينضمـوا إلى «داعـش» رغـم أنهـم ينعمـون بالحرية والرفـاه في بلادهـم، وكثـير منهـم تلقـوا تعليمـاً حديثـاً، يجعـل بإمكانهـم تمييـز الخبيـث مـن الطيـب، والمفيـد مـن المضـر، ومـا يبعـث علـى التقـدم ممـا يوقـع في التخلـف.

ابتـداء قـدم الكاتـب الصحـافي اللبنانـي الكبـير الأسـتاذ عبـد الوهـاب بدرخـان ورقـة بعنـوان «إعـادة تصديـر الإرهـاب مـن الغـرب إلى العـالم العربـي» كشـف فيهـا أن خمسـة بريطانيـين يلتحقـون بداعـش كل أسـبوع، إلا أن أغلـب هـؤلاء ينحـدرون من أصـول عربيـة وإسـلامية. لكـن السـؤال: مـاذا عـن بريطانيـين وفرنسـيين وألمـان وصـرب وأوروبيـين آخريـن هـم لاتـين وجرمـان وسـلاف وآريـين .. الخ.

هـذا سـؤال أثـاره الدكتـور وحيـد عبـد المجيـد الكاتـب والباحـث البـارز رئيـس تحريـر مجلـة السياسـة الدوليـة، وأجـاب عليـه بنفسـه ليعـزو ذلـك إلى تراجـع تأثـير الفلسـفات الكليـة والسـرديات الكـبرى في أوروبـا، وهـي رؤى ونظريـات كان

بوسعها أن تجذب قطاعات عريضة من الشباب في العقود الماضية إلا أنها أفلست الآن، ولم يعد بوسعها أن تجيب على أسئلة الشباب المتجددة والملحة، فتركتهم فريسة للفراغ والحيرة، ولذا راح بعضهم يبحث عن الامتلاء في ركاب «داعش» ورحابها، أو هكذا يظن ويتوهم.

وتحدث الكاتب السعودي الأستاذ تركي الدخيل في ورقة عن إعلام «داعش» فاقترب من جوهر الموضوع حين أتى بشكل تفصيلي عن جانب الإغراء والإثارة فيما ينتجه هذا التنظيم الإرهابي من مواد إعلامية جذابة، بحس هوليودي واضح عياناً بياناً، مستهلاً بذلك الفيديو الذي ظهر فيه شاب أسمر يقول عن تجربته بين مقاتلي داعش في أرض الشام موجها حديثه إلى أبناء جيله: «أشعر أنني في حلم .. المتعة التي نحن فيها لا يمكنكم تخيلها .. إنها والله لنعمة عظيمة».

في ظني أن السبب في انضمام أوروبيين أقحاح إلى داعش لا يعود فقط إلى إفلاس الفلسفات الغربية، ولا إلى ظروف قاسية تواجه بعض الشباب الأوروبي الأصلي، بعضها اقتصادي يتعلق بالبطالة والتهميش وبعضها نفسي يرتبط بالاغتراب وكراهية منتج الحداثة والعولمة وعدم التحقق لوجود هوة بين الحلم والواقع أو حتى الرغبة في الانتقام، إنما للموضوع جانب آخر إلى جانب كل هذا، يتعلق بغرائبية داعش، كما يصورها الإعلام العربي والغربي بنسب متفاوتة، أو يصدرها التنظيم الإرهابي نفسه عن فكره وشخوصه وحاله وحياة من ينضمون إليه.

هـذه الغرائبيـة وتلـك العجائبيـة مغريـة وجاذبـة، وهـي مسألة تعلمها هوليود نفسها ولذا تنتج عشرات الأفلام من أمثال «ملك الخواتم» و«أفاتار» وكل أفلام الـ «فان باير» و«المستذئبون» وكذلك أفلام الرعب متنوعة الموضوعات، موقنة أن لها جمهوراً ينتظرها في لهفة لتكسر رتابة حياته، أو تمتعه، أو تطلق العنان لخياله، أو تلبي احتياجه إلى الأساطير في عالم رقمي غارق في الأتمتة.

ولعل ما ذكره الباحث السعودي منصور النقيدان مفيد في شرحٍ جانب من الأسباب، حيث قال إنه التقى شاباً سعودياً قاتل في الشيشان فراح يتحدث له بفخر واعتزاز عن تجربته هناك: «كنت أشعر أنني رجل، بطل، مقاتل جسور، حر، أمشي في الجبال حاملاً رشاشي ولا يوقفني أحد .. لم أجد ذاتي إلا بين المقاتلين».

كان هذا الشاب لا يبحث عن التحقق فحسب، بل يريد أن يكون كائناً أسطورياً، وهناك من بين الأوروبيين الأقحاح من يريدون هذا أيضاً، ويعتقدون أن بوسع «داعش» فقط على الأر ض أن تحقق لهم أمانيهم بأن يكونوا أبطالاً أسطوريين مثل أولئك الذين يملؤون الشاشات البيضاء قادمين من هوليود.

فإذا تركنا الأسباب التي تؤدي إلى انضمام أوروبين أقحاح إلى داعش إلى تحليل عمليات التنظيم على أرض أوروبا، سنجد أن أهمها وقع في باريس، رغم أن فرنسا

بدت متحسبة وحذرة منذ حادث «شارل إبدو» مطلع عام ٢٠١٥، لكن دوما تمضي القاعدة التي تقول: لا يمكن لدولة يقصدها إرهابيون بإصرار أن تتجنب آذاهم تماما، مهما كانت أجهزتها الأمنية يقظة.

وعقب الحادث بدأت الحكومة الفرنسية في اتخاذ إجراءات استثنائية، وفرنسا هي بلد الحريات، ولا يستطيع أحد أن يلومها، فهي تعمل ما يحفظ حياة مواطنين اختاروها، ويعولون عليها في أن تعمل دوما لصالحهم، ولا يوجد أهم من حفظ حياة الناس، وحمايتهم من الترويع الذي رأيناه في الصور والأفلام التي نقلت من مواقع الأحداث المرعبة.

في قابل الأيام سيعيش العرب والمسلمون ليس في فرنسا وحدها، بل في أوروبا كلها، أياما عصيبة، فهم دوما يدفعون ثمن تصرفات مجموعة من القتلة الحمقى، ولن تنفعهم تماما إدانة الحادث وإعلان التعاطف والاصطفاف مع الفرنسيين الأقحاح، فالإرهابيون خارجون من بينهم، والأفكار التي يستندون إليها مبثوثة إلى حد ما في أذهان بعض الذين يعيشون في فرنسا منذ سنين، وجاءت وسائل التواصل الإلكتروني السريعة والمتقدمة لتعطي فرصة لمراكز التنظيمات الإرهابية، وعلى رأسها داعش، في تجنيد بعض الشباب لينفذوا عمليات لصالحها، سواء عبر ما يسمى «الذئاب المنفردة» أو بهذه الطريقة المنظمة والمخطط لها بعناية والتي اتبعت في حادث باريس.

ولم يمر سوى وقت قصير حتى هزت التفجيرات العاصمة البلجيكية بروكسل، وهي مقر الاتحاد الأوربي وأوقعت ٣٤ قتيلا وأكثر من مائة جريح هو «الإرهاب يتمدد»، فبعد روما ومدريد ولندن وباريس، ها هي بروكسل تدخل حزام الإرهاب، وهي ليست عاصمة دولة فحسب، بل هي مقر الاتحاد الأوروبي، وهذا له معنى ومغزى مادي ورمزي لم يكن غائبا عن أذهان الذين استهدفوها.

وقد ربطت تحليلات متعجلة بين تمكن بلجيكا من القبض على صلاح عبد السلام المتهم في تفجيرات باريس التي وقعت في نوفمبر ٢٠١٥ وبين حادث تفجير مطار ومترو بروكسل، وظني أن هذا ليس صحيحا، والأرجح أن تلك العملية كان مخطط لها منذ زمن، وربما بُعيد ما جرى في العاصمة الفرنسية، فرئيس الوزراء البلجيكي قال «ما كنا نخشاه وقع»، بل إن وزير داخليته قد صرح قبل يوم من وقوع الحادث بأن بلاده في حالة تأهب قصوى تحسبا لوقوع هجوم انتقامي، وذلك عقب القبض على عبد السلام، وقال «نعرف أن توقيف خلية يمكن أن.. يدفع آخرين إلى العمل. نحن على علم بذلك في هذه الحالة»، لكن دخول بروكسل على خط أحداث باريس وقت وقوعها قبل أكثر من أربعة أشهر يبين أن هذا المخطط أقدم من الإمساك بإرهابي هارب. ووكالة «رويترز» نفسها قالت في تقرير حول الحادث «من غير الواضح ما هي الثغرات الأمنية التي سمحت للمخطط

obeikan.com

يـوم الثلاثـاء بالمضـي قدمـا ومـا إذا كان الهجـوم المـزدوج قـد خطـط لـه مسبقا أو اعتمـد في وقـت قصـير».

ومـن الممكـن أن يكـون الدواعـش قـد وضعـوا «بنك أهـداف» في أوروبـا منـذ مـدة، وهـا هـم ينفذونـه تباعـا، والأوربيـون أنفسـهم يدركـون هـذه الحقيقـة، بدليـل أنهـم جميعـا شـرعوا في إجراءات احترازيـة بعـد تفجـيرات بروكسـل، بدرجـات متفاوتة، وحسـب توقـع كل بلـد لمسـتوى اسـتهدافه، وحجـم التهديـدات الـتي تلقاهـا مـن إرهابيـين، وعـدد الذيـن انضموا مـن مواطنيـه لداعش.

أمـام فرنسـا وبلجيـكا وغيرهمـا مـن دول أوروبـا خيـاران الآن، إمـا الخضـوع لابتـزاز داعـش وتهديداتهـا والانسـحاب مـن الحـرب علـى داعـش، أو الإصـرار علـى مواصلـة القتـال ضـد هذا التنظيـم. وفي كل الأحـوال فـإن الـدول الغربيـة مطالبـة الآن أكثـر مـن أي وقـت مضـى أن تنسـق أمنيـا مـع الـدول العربيـة، وأن تقلـع عـن التعاطـف مع التنظيمـات المتطرفـة والإرهابيـة تحـت أي حجـة أو ذريعـة، وألا توظفهـا مسـتقبلا لخدمـة أغراضهـا ومصالحهـا السياسـية، فمـن يمسـك النـار ليحـرق غـيره يمكـن أن يحـترق هـو، بـل مـن المؤكـد أنـه سـيحترق.

والسـؤال الـذي يطـرح نفسـه في هـذا المقـام هـو: إلى متـى سـينتظر العـالم قيـام الإرهابيـين بالتمـدد الجغـرافي وتحقيـق الأهـداف الـتي وضعوهـا؟ لقـد قـال الرئيـس الأمريكـي بـاراك أوبامـا، الـذي كان موجـودا في كوبـا وقـت وقـوع الحـادث،

إنـه «يجـب أن نتكاتـف في المعركـة ضـد الإرهـاب دون النظـر إلى جنسـية أو عـرق أو عقيـدة .. ونحـن قـادرون علـى هزيمـة مـن يهـددون سـلامة النـاس وأمنهـم في مختلـف أنحـاء العـالم وسـوف ننجـح في ذلـك.» لكـن واشـنطن ومعهـا عواصـم غربيـة كـبرى لا تريـد أن تـدرك أن هـذا التكاتـف ينبـني علـى أسـس محـددة يمكـن ذكرهـا علـى النحـو التالـي:

١. يجـب التعـاون التـام بـين الغـرب ودول عربيـة وإسـلامية في مجـال تبـادل المعلومـات حـول التنظيمـات الإرهابيـة، ليـس بوتـيرة أسـرع وأعمـق ممـا عليـه الآن، لكـن بشـكل تـام، ودون مـداراة أو تحايـل.

٢. مـن الضـروري أن يجـري التنسـيق العميـق بـين كافـة الـدول المعنيـة بمكافحـة الإرهـاب في الخطـط الأمنيـة أو العسـكرية الـتي تسـتهدف مواجهـة الإرهابيـين، سـواء مـن خـلال الحـرب الدفاعيـة أو المبـادرة أو المبـادأة الـتي تخرجهـم مـن جحورهـم وتنهـي خطرهـم.

٣. مـن المهـم جـدا فهـم أن المعركـة هـي ضـد الإرهـاب، كأفـكار وأنسـاق ونظـم، وليسـت فقـط ضـد الإرهابيـين، وأن الاكتفـاء بمطـاردة الإرهابيـين وقتلهـم في سـاحات المعـارك أو القبـض عليهـم وتقديمهـم للمحاكمـة، ليـس كافيـا، إنمـا الأهـم هـو ضـرب البيئـات الحاضنـة والمحفـزة والمنتجـة للإرهـاب.

٤. عدم قيام أي دولة بتوظيف تنظيمات وجماعات إرهابية لخدمة مصالحها، فما تعاون أحد مع إرهابيين إلا انقلبوا عليه، فضلا عن ضرره بالآخرين، وهذا يدخل في باب «رعاية الإرهاب» بل العدوان على دول، وبذا ترتب عليه عقوبات وخيمة إن طبقنا القانون الدولي.

فمن دون هذه الأسس الأربعة، على الأقل، يبقى حديث المسؤولين الغربيين عن مكافحة الإرهاب مجرد تصريحات للاستهلاك المحلي، في محاولة لاسترداد ما تم خصمه من رصيدهم السياسي بعد كل عملية إرهابية تقع في بلادهم.

وهناك مسألة لا يجب أن نغفلها ونحن نناقش وجود داعش، ومن قبله القاعدة، في أوروبا أو حتى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تذهب بعض الآراء إلى أن بعض أجهزة استخبارات وكذلك السلطات في الغرب توظف الأعمال الإهاربية التي يقوم بها «تنظيم داعش» ومن على شاكلته في منع تمدد الإسلام هناك، بل تمتد هذه الآراء إلى أقصى حد قائلين إن داعش وأخواتها إنما صنعت لأداء هذه المهمة ضمن مهام أخرى، واستهدافه لدول غربية بين حين وآخر تزكي هذا الاتجاه بعد خدمته.

قبل اثني عشر عاما، تحديدا في مايو ٢٠٠٤، كتب الباحث الأمريكى ذى التوجهات المعادية بشدة للإسلام دانيال بايبس مقالة بصحيفة «نيويورك صن» رأى فيها أن

أوروبا تتحول لتصبح «إقليما إسلاميا» بعد أن كانت معقل المسيحية التليد، وهو بالطبع لم يقصد الدفاع عن الإسلام إنما التحريض عليه.

وبعدها تعالت الأصوات التى تهاجم القرآن والرسول- صلى الله عليه وسلم- فى الغرب، فوجدنا السكرتير الخاص لبابا الفاتيكان بنديكتوس السادس عشر يقول فى مقابلة مع مجلة «زودوتيشة» الألمانية فى يونيو ٢٠٠٧: «لا يجب أن نهمل المساعى الرامية إلى أسلمة الغرب».

أما البابا السابق نفسه ألقى محاضرته الشهيرة التى استعان فيها بحادثة ونص قديم لوى فيه عنق الحقيقة ليثبت أن الإسلام غير عقلانى، معتقدا أن هذا هو المدخل الصحيح لتخويف الأوروبيين من آخر الأديان السماوية.

وبعدها رأينا موجة الرسوم الكاريكاتورية للرسول، ورأينا رجل دين ألمانياً يدعى رولاند فيسلبرج يضرم النار فى نفسه بساحة دير مدينة إيرفورت احتجاجاً على انتشار الإسلام بالقارة العجوز. لكن هذا لم يوقف انتشار الإسلام، إلى درجة أن مكتب الهجرة فى فيينا أحصى دخول ٦٣ أوروبيا إلى الإسلام كل يوم، فيما ذكرت دراسة لوزارة الداخلية الفرنسية أن ٣٦٠٠ شخص يعتنقون الإسلام سنويا فى فرنسا، التى بات بها ٢٣٠٠ مسجد، ونحو ٧ ملايين مسلم. وفى الدنمارك، يعتنق شخص واحد على الأقل

الإسلام يوميا، حسب صحيفة «البوليتيكن»، وتجاوز عدد الدنماركيين الذين أسلموا منذ نشر الصور المسيئة للرسول ٥٠٠٠ شخص.

وفى هولندا زاد إقبال المواطنين على شراء المصاحف المترجمة، وأسلم ثلاثة بعد أسبوع واحد من عرض فيلم «فتنة» الذى يسيء إلى الإسلام. أما فى بلجيكا فأصبح ثلث سكان العاصمة بروكسل من المسلمين، حسب صحيفة «لاليبر بلجيك»، وتضاعف عدد المسلمين فى البلاد خلال السنوات العشر الأخيرة، وتصدر اسم محمد أسماء المواليد الجدد منذ مطلع الألفية الثالثة، الأمر الذى سيجعل الدين الإسلامى هو الأول بهذه المدينة الأوروبية العريقة.

وفى السويد اعتنق ١٥ ألف مواطن سويدى الإسلام بعد أزمة الرسومات المسيئة للرسول، ليزيد عدد المسلمين هناك إلى ما يربو على ١٢٠ ألف شخص، الأمر الذى حدا بالسلطة إلى الاعتراف بالإسلام وتدريسه فى المدارس الحكومية.

ويتقدم عدد المسلمين فى إسبانيا إلى ما يزيد على مليون ونصف المليون، وسيصبحون ربع السكان فى فرنسا بحلول عام ٢٠٢٥. وفى بريطانيا يتزايد عدد مرتادى المساجد سنويا إلى درجة أن صحيفة «ديلى تليجراف» تتوقع أن يتجاوزوا عدد من يحضرون صلاة الأحد فى الكنائس بعد عشر سنوات، وهو التطور الذى جعل روان ويليامز، كبير أساقفة كنيسة

كانتربرى يدعو، فى حديث لهيئة الإذاعة البريطانية فى فبراير ٢٠٠٨، إلى تطبيق بعض جوانب الشريعة الإسلامية فى بريطانيا، بغية الحفاظ على التماسك الاجتماعى.

وقبل سنوات زارتنى باحثة مصرية تواصل دراساتها العليا فى ألمانيا، وأكدت لى أن عدد الألمان الذين ينخرطون فى الطرق الصوفية يزداد بشكل لافت. وهى المسألة التى تؤكدها صحيفة «دى فيلت»، التى قالت بلا مواربة: «الإسلام ينتشر فى ألمانيا بصورة متزايدة».

ورغم عدم وجود إحصائيات رسمية حول هذه المسألة فإن التوسع فى بناء المساجد يدل عليها، حيث وصل عددها إلى ١٨ مسجدا، وهناك ١٢٠ أخرى تم وضع خطط تشييدها، خلافا للزوايا الصغيرة المنتشرة فى أماكن عديدة. وقد حدا هذا برجل الاقتصاد والكاتب الألمانى تيلو ساراتزاين إلى أن يقول فى كتاب عنوانه «ألمانيا تلغى نفسها» وصدر هذا العام «إن ألمانيا ستتحول إلى دولة إسلامية خلال المائة سنة المقبلة».

وهناك من بين الأوروبيين أنفسهم من يرى أن هذه الأرقام لا تعكس الواقع، لأن هناك من يسلمون دون إشهار، ولا يعنيهم أن يعرف الآخرون الدين الذى يعتنقونه. وهذا النمو فى عدد المسلمين بأوروبا هو جزء من تزايد تعدادهم فى العالم بأسره، حيث فاقوا ٢٠٪ من البشر، وهى مسألة يتوقع سيرى بيتش، عالم الجغرافيا الاجتماعية بجامعة

opelikan.com

أكسفورد، استمرارها، ويقول: «عدد المسلمين سيتضاعف فى العقود القليلة المقبلة، ليصبح أتباع هذا الإسلام هم الأكثر فى العالم، للمرة الأولى فى التاريخ، بعد أن كانت القمة يعتليها الكاثوليك لقرون طويلة».

الآن بعد ظهور تنظيم داعش ووقوع تفجيرات في أوروبا، يتبناها هو وتعلن السلطات في البلدان المستهدفة أنه هو المسؤول عنها، أعتقد أن هذا سيؤثر كثيرا على تمدد الإسلام في القارة من الناحية الموضوعية، فضلا عن استغلاله من قبل من يعملون على تحقيق هذه الاستراتيجية، خاصة أن عددا من الأوروبيين الأقحاح انضموا إلى داعش، بما يثير مخاوف من قيام تنظيمات متطرفة محلية في أوروبا، على غرار ما جرى في بلدان العالم الإسلامي، ويمثل منع تمدد الدين الإسلامي بالنسبة لهم نوعا من التصدي لهذا الخيار من المنبع.

لهذا فإن من يقولون إن مواجهة داعش هي انتصار للإسلام، واقعا ومضمونا وصورة،ـ لا يجافون الحقيقة أبدا، بل يصيبون كبدها.

obeikan.com